أثر المكان في فهم الجملة عند سيبويه

أ.م.د. حسن عبد الغني الأسدي/ كلية العلوم الإسلامية/ جامعة كربلاء

ملخص البحث:

ورد المكان في الفكر السيبويهيّ في جانبين؛ الأول: الظرف الذي تتضمنه الجملة والثاني: ظرف الجملة، وتمثّله البيئة التي تتمّ بها عملية التواصل؛ وهو ما توجهنا إليه هنا. فوظيفة النحويّ لدى سيبويه تتجلى في أن تتمّ دراسة الكلام في إطاره الاجتماعي التداوليّ؛ لأنّ اللغة العربية عنده كانت لغة خطاب ولم تكن لغة معيار يراد تعلّم قواعدها لارتقاء الفصاحة. على الرغم من أن المكان عنصر غير لغوي إلاّ أنّ المتكلمين يضمنونه في كلامهم؛ وقد مثّل الاهتمام به في التحليل النحويّ عند سيبويه ريادة له وإحساسا منه باللغة المؤداة فاق مرحلته على نحو نزعم به ولأمور أخرى بعربية سيبويه وبصريته: تلك العربية التي تمثلها ثقافته، ونمط تفكيره وانتماؤه إلى المكان؛ والى هذه اللغة التي درسها. وسيبويه من بعد عربي فصيح؛ شهد له القاصي والداني بما لم يشهدوا به لغيره خلا أستاذه الخليل. فالعربية لغته الأم، وبصريته الثقافية والاجتماعية واضحة في كتابه. ولقد اتّخذ في معالجة نصوصها منحى يصعب على غير ابن اللغة وبيئتها اتخاذه هو منحى يقوم على الاستقصاء والوصف ثم التفسير.

لقد انعكس الاهتمام بظرف التكلم عند سيبويه في محاور أبرزها:

1. المحور الأول: حول الكتاب وصاحبه
2. المحور الثاني: بنائية اللغة أو هيكليتها المعمارية عند الخليل وسيبويه.
3. المحور الثالث: الأثر التداوليّ للمتكلم في البناء النحويّ للكلام.
4. المحور الرابع: الافتراض السياقي للخطاب(الخُلْف).

كان كتاب سيبويه إرهاصا لقواعد تفكير لغويّ شهدته البصرة، وهو تفكير تم تطويره على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ)، وتلميذه سيبويه(ت175هـ) وهو تفكير ينتمي إلى بيئته، ويستوحي بعض مظاهرها البصريّة. في مقابل من يقول بالأثر الخارجي، ولعل العروج على قومية سيبويه، والتأكيد على أصله الفارسي، شيء من لمح ذلك الأثر فهو شجرة فارس آتت أُكلها في البصرة. ونحن هنا نعتقد أنّ شيئا يمكن أن يقال ههنا في عربية سيبويه؛ ومن الواضح أننا لن نأتي على ذكر الجينات الوراثية لقطع النزاع، بل حجتنا في ذلك بعض ما دوّنه سيبويه نفسه وشيئا مما دوّنه المؤرخون. والأمر– على ما أرى– متعلّق بإظهار عربية سيبويه وبصريته اجتماعيا وثقافيا، لما نعلم من أثر البيئة في تنمية أبنائها وتأطير ثقافتهم بخصائصها المكانية والزمانية.

لقد نظر الاتجاه التداولي في الدرس النحوي المعاصر إلى الكلام بوصفه انجازا تتوارد فيه أثار متعددة من خارج اللغة فتكتنزها جمله ودلالات مفرداته، ومن هنا:((**يلزم أن تدرس الأساليب والأنماط اللغوية داخل إطار العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع وتحليل تلك الأساليب إلى عناصرها الصوتية والبنائية والنحوية والدلالية لاستكناه هذه العلاقة وبيان طبيعة النمط الأدائي في اللغة ومدى تأثره بالفعل الاجتماعي**))[1]. ونزيد على هذا القول أن جزء من تلك التداولية تكمن في عالم اللغة نفسه فهو لم يكن بمنأى عن التأثر بالبيئة وحاله في ذلك كحال المتكلم، فسيعمد بوعي أو بغيره إلى اكتناز عناصر المكان والزمان والميول الاجتماعية المعاشة في عملية فهم مكونات درسه اللغوي، ومحاوره ومنهج معالجة لغته. فلا يقصر النظر التداولي على مكونات اللغة ذاتها؛ بل يضاف عليها الطرائق المتبعة لفهمها، لاسيما أنّ واحدا من نتائج النظر إلى كتاب سيبويه هو خطابية اللغة في عصره فسيبويه تعامل مع الكلام العربي بوصفه خطابا متداولا بين أفراد بيئته، وهو في نحوه لم يكن بمعزل عن الحركة العلمية ولا سيما انجازات الفقهاء والمفسرين في عصره. فالكتاب بوصفه انجازا حضاريا هو وليد ظروف علمية واجتماعية ونفسية: عامة، وخاصة مرت بها البصرة، وعالماها الخليل وسيبويه في تلك الحقبة المهمة من الحضارة العربية الإسلامية.

ومنهجي في البحث الاعتماد على ما قاله الخليل وسيبويه فسطورهما أحق بأن نردها لفهمهما.

على العموم فنحن في هذا البحث سنلج جوانب مختلفة نظهر فيها مدى التفاعل الكبير بين النحوي المبدع وبيئته التي استزاد منها مسارات لإبداعه. والمكان من بعد عنصر غير لغويّ، إلاّ أنّ المتكلمين يعمدون إلى اكتنازه في أدائهم؛ وإنّ استرجاعه أو استحضاره في التحليل النحويّ–عند سيبويه– يمثّل في نظرنا جانبا من الإحساس العميق بالانتماء إلى البيئة البصرية العربية. وكان له أثر فاعل في توجهات الدرس السيبويهي، وإثراء بعض جوانبه. ونرى أن هذا العنصر انعكس في محاور عدة أبرزها:

(1) أسلوب النداء دراسة لغوية صوتية:88.

1. المحور الأول: الكتاب وصاحبه
2. المحور الثاني: بنائية اللغة أو هيكليتها المعمارية عند الخليل وسيبويه.
3. المحور الثالث: الأثر التداوليّ للمتكلم في البناء النحويّ.
4. المحور الرابع: الافتراض السياقي للخطاب(الخُلْف).

المحور الأول

الكتـاب وصاحبـه

سيبويه بصريّ واضح البصرية، وعربي فصيح شافه الأعراب وسمع منهم وروى عنهم الكثير، وله منهج للنظر في كلامهم أخذ أسسه عن أستاذه الخليل؛ حتى أن طريقة تناوله النحو تختلف اختلافا بيّناً عن طريقة معاصريه وخالفيه و((...**الصورة التي يمثلها سيبويه هي الدليل الأوضح على أن النحو العربي في بداياته لم يكن معياريا خالصا، بل كان ألصق ما يكون بالتنظير اللساني الحديث. وهو ما قاد النحويين الأوائل إلى الوصول إلى مفاهيم غاية في الدقة والعمق والغنى النظري. ومن ذلك القول بأن الإعراب إنما هو نتيجة لعمل الكلمات بعضها في بعض. وقد اكتشف المتخصصون في اللسانيات الحديثة، وبخاصة في إطار اللسانيات التوليدية، هذا الغنى النظري في النحو العربي المبكر. وهو ما دعا هؤلاء إلى القول بأن النحو العربي في صورته تلك يتشابه مع الدراسات اللسانية الحديث، إن لم يتماثل معها، في الأهداف وفي طريقة البحث وفي الوصف والتفسير**))[2]. وهو أمر يلاحظ مع كل صفحة من صفحات الكتاب، ولا يبعد أن عمق الانتماء إلى البيئة واللغة هما الأساس الأول في هذه الوصفية التفسيرية التي ظهرت عند الخليل وسيبويه. ولم تظهر عند خالفيه الذين تسلطت عليهم هيبة سيبويه وسطوته، فلم نرى أثرا لمعايشتهم اللغة في بيئتها، فلم يكونوا نحويين بل كانوا رواة النحو[3].

وعلى الرغم مما قيل في أنّ سيبويه لم يضع اسما لكتابه فإني أرى أنّ كتاب سيبويه أو الكتاب هي تسمية من وضع سيبويه متأثرا بتسمية القرآن الكريم كتاب الله، وكما أن القرآن كتاب الله المهيمن على كل الكتب السماوية، فكذا أراد سيبويه أن يكون لكتابه تلك المنزلة في النحو العربي فإلى جانب ما تعارف عليه الناس زمن سيبويه بإظهار ما يمتازون به فنجد حفاوة كل قبيلة بإظهار كتابها أو ديوان شعرها لأنه صورتها التي تحب أن تعرف بها، فقد أورد سيبويه نصا ينطق بحاله، إذ قال:((**وتقول إذا نظرت في**

(2) مراجعات لسانية مقالة لنحويين الرواة: 207. حمزة بن قبلان المزيني كتاب الرياض

(3) وهي تسمية استعملها د. حمزة بن قبلان المزيني في بعض مقالاته، ينظر: كتاب الرياض القسم الثاني : 205.

الكتاب: هذا عمرو؛ وإنّما المعنى:هذا اسم عمرو، وهذا ذكر عمرو، ونحو هذا، إلا أنّ هذا يجوز على سعة الكلام..))[4]. إذ يبدو أنّه قد أراد نفسه هنا فصرّح باسم(الكتاب) واسم صاحبه عمرو وهو اسمه.

كما يعزز هذا الانتماء اسم سيبويه، فلو تخيلنا للحظة أن سيبويه لم يعرف بهذا اللقب بل عرف باسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، أو عرف بإحدى كناه (أبي بشر أو أبي الحسن أو أبي عثمان)، فهل من يسمع بهذا الأسماء والنسب يقول أنه فارسيّ الأصل، فكل هذه الأسماء عربية عريقة في العربية[5]، وليست من أسماء العجم بل إنّ اسم قَنْبَر أو قُنَبْر[6]، أو قُنْبُر كما في الجمهرة [7] عربيّ قحّ، و القُنْبُرة طائر معروف، وجاء في العين قوله:((**القُنْبُر: ضرب من الحمر، ودجاجة قنبرانية: على رأسها قنبرة، أي، فضل ريش قائم، مثل ما على رأس القنبرة. قال أبو الدقيش: قنبرتها: التي على رأسها))**[8].

ما يعني صعوبة أن يُسمى به من ولد في البيضاء في أصطخر من بلاد فارس وتركها صبيا ليسكن البصرة، فهو قول لا ينسجم وواقع الحياة الاجتماعية وظروفها. فلا يبعد أن تكون البصرة محل ولادته ومرتع صباه، ولا أقلّ من أن تكون محل سكن عائلة جدّه قُنْبُر، وإذا قدرنا ذلك بالسنين وأخذنا في الحسبان مدة خمسين سنة لكل جيل تكون هذه العائلة قد عرفت العربية لغة وبيئة مع بداية انتشار الإسلام خارج الجزيرة؛ فوفاة سيبويه كانت[180أو 175هـ] ولمّا كان لكل جيل50 سنة على ما هو متعارف فـ(150) تكون لثلاثة أجيال] وبذا فعائلة سيبويه في(30هـ تقريبا) كانت في بلاد العرب علما أن فتح اصطخر كان في حدود 28هـ أو بعد ذلك بقليل[9]؛ فلا أقل من أنّ والد سيبويه فضلا عن سيبويه كان يعيش في البيئة العربية، وهو ما تقويه الرواية التي تذكر أن جدّ سيبويه(قنبر) دخل الإسلام في عهد الإمام علي(عليه السلام) وقد يكون سمّاه على اسم مولاه قنبر(رض)[10]. ومن هنا كيف يتسنى القول بولادة سيبويه

---

(4) الكتاب369/3. وينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه:40.

(5) يرى الأستاذ علي النجدي ناصف(سيبويه إمام النحاة: 74) من منطلق تسليمه بأصل سيبويه الفارسي أنّ في تبنّي هذه الأسماء من عائلة سيبويه زلفى إلى الأمويين، وتوددا لعصبيتهم القومية لأنها من الأسماء التي اشتهروا بها. ولا يعدو هذا القول التخمين وسوء الظن بهذه العائلة، لا سيما أن هذه الأسماء يسمي بها العرب عامة لا الأمويون فقط، وأن ولادة سيبويه كانت بعد انهيار دولتهم، ولم يعرف من عائلته أنها توددت للأمويين ليقال ذلك في أسمائهم. كما أن سيبويه لم يكن مباليا بهم أو بخلفاء بني العباس وولاتهم، ولم تكن رحلته إلى بغداد طلبا للزلفى عند الأمراء وحبّا في صِلاتهم، وشهرته أوسع من تأتي عليها بعض حيل الكسائيّ والفراء.

(6) ينظر: سيبويه إمام النحاة :74.

(7) قال في الجمهرة(134/2) : ((**وقُنْبُر: اسم، وأحسب النون زائدة. والقُنْبُر: طائر، وربما قالوا قُنْبَر**)).

(8) العين 264/5.

(9) ينظر: فتوح البلدان:480/2. البلاذري القاهرة مطبعة لجنة البيان العربي.

(10) كتاب سيبويه: 7، محمد علي النجار،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1995.

باصطخر، ثم مجيئه البصرة مبكرا؟!!، مع فصاحته التي ظهرت مع أولى دروسه في تلقي الحديث عند حمّاد بن سلمة!. وعلى العموم فتفاصيل نشأة سيبويه وعائلته قليلة ويعتريها الغموض، ولا يبعد كونها أسرة عربية غير معروفة اختلق لها هذا النسب لأسباب كثيرة.

وإذا كان المعوّل في فارسية سيبويه لاحقة لقبه(ويه) التي قيل أنها فارسية تعني رائحة، وسيب التي تعني ثلاثين، فسيبويه نفسه ينكر كونها مما يلحقه العجم بالأسماء كما في النص الذي يقول فيه:((**وأمّا عمرويه فإنهَّ زعم[11] أنّه أعجميٌّ، وأنه ضربٌ من الأسماء الأعجميّة، وألزموا آخره شيئاً لم يُلزَم[12] الأعجمّية، فكما تركوا صرف الأعجميّة جعلوا ذا بمنزلة الصَّوت، لأنهمَّ رأوه قد جمع أمرين، فحطّوه درجةً عن إسماعيل وأشباهه؛ وجعلوه في النكرة بمنزلة غاقٍ، منوّنةً مكسورة في كلِّ موضع**))[13]. فواضح أنّ سيبويه يرى أنّ(ويه) التي لحقت(عمرو) ليست مما يلحقه العجم بأسمائهم، فهي أشبه بتصويت يلحق هذا الاسم فهو نفي واضح لكون اللاحقة أعجمية؛ ويبدو أن ذكره اسم عمرو دون غيره (وهو اسم سيبويه) يكشف رغبته في إظهار عربيته ويعزز كون(**ويه**) من اللواحق التي كان البصريون يوردونها أسماءهم. ولقد أكد النحاة في باب الممنوع من الصرف أنّهم لا ينظرون إلى لفظة سيبويه في منع صرفه أو بنائه على الكسر بوصفه أعجميا بل لأنه علم مركب. ما يدعونا للنظر الى هذا اللقب بوصفه انعكاسا لبعض العلاقات الاجتماعية التي تبرع في اختيار الألقاب تندرا أو تشنيعا أو لمجرد التمييز فيوردون الكنى والألقاب بعضهم على بعض، خاصة لمن كان بارزا من بين أقرانه ونحو ذلك.

ولا يبعد أن تكون المنافسة بين العلماء عاملا في مثل هذه رغبة بالحطّ من منزلة سيبويه؛ فلقد كان سيبويه لا يدانيه أحد كما كانت البصرة معلمة للكوفة وبغداد بالخليل وسيبويه وقبلهما بأبي عمرو بن العلاء. ولقد استشعر الكسائي الكوفي حاجته لمعرفة ما عند سيبويه، ومثله الفراء؛ ولقد بيّن لنا الكسائي أن مثل هذا المسلك قد يصدر منه ومن مناصريه بما حدث في المسألة الزنبورية، وقد روى الفراء أنّه بعد أن بحث عن سيبويه وجده لا يحسن نطق جملتين نطقا صحيحا، ولكنهم بعد موته وجدوا تحت وسادة رأسه نسخة من الكتاب؟!.

المحور الثاني

بنائية اللغة أو هيكليتها المعمارية عند الخليل وسيبويه

(11) ممن الممكن قراءة الفعل مبنيا للمجهول (زُعِم) لا (زَعَم أي: الخليل).

(12) أورد علي النجدي ناصف النص؛ ((**وألزموا آخره شيئاً يلزم الأعجمّية**)) (بولاق2/52-53) نقلا عن طبعة بولاق ولما عدت إليها، وجدت أن المذكور فيها (لم يلزم) ؟! وكذا في طبعة المحقق عبد السلام محمد هارون (301/3) وأيضا طبعة أخرى للكتاب بهامشه تحصيل عين الذهب للشنتمري نشر مؤسسة الأعلمي: 60/2 ؟! .

(13) كتاب سيبويه: 301/3.

تبدو المقولات التي تشير إلى تأثّر الإنسان ببيئته في الميادين العلمية شيئا مألوفا بل لقد كانت عند بعضهم مسلكا للإبداع ونذكر هنا مؤسس علم اللغة الحديث دوسوسير فقد تأثّر بمقولات دوركايم عالم الاجتماع في رؤيته للغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، وكذا تأثّر بلومفيلد بآراء عالم النفس السلوكي بافلوف؛ وتأثر تشومسكي بفلسفة ديكارت وغير ذلك؛ وكذا الحال في نقل بعض الاصطلاحات من علم إلى آخر كما في استعمال مصطلح القدرة البنائية للفعل وهو من مجال الكيمياء إلى المجال النحوي. وقد كانت للمستشرق كارتر وقفات لامعة نمت عن قدر عال من العلمية ومن تلك الوقفات تأمله في مصطلحات سيبويه لا سيما في باب الإحالة من الكلام والاستقامة فقد ربطها بعلم الأخلاق الإسلامية، وهو في هذا من أوائل من دافع عن الأصول الإسلامية للنحو العربي ووقف في وجه العديد من ممن زعموا نسبة النحو العربي إلى المنطق الأرسطي؛ يقول بعض الباحثين في كارتر:((**هو يرى أنّ مفاهيم النحو إن لزم لها أنّ لها جذورا وأصولا، ينبغي البحث عنها في حقول المعرفة الإسلامية وليس خارجها؛ نظرا لتفاعلها الطبيعي المدهش داخل البنية المركبة للعقل العربي والمسلم، وخلافا لما ذهب إليه د.عابد الجابري الذي إن سلَّمنا له بأنّ ما ورد في باب الاستقامة من الكلام والإحالة هو جهة من جهات أو موجات Modalitesمركبة، ومعلوم أنّها شديد الصلة بالمنطق**))[14].

وقد تبين لي–بدراسة خاصة– أنّ سيبويه اتّبع منهجا تفسيريا مستوحى من عمل المفسرين، لذا وسمت منهجه في تناول الكلام بالمنهج التفسيريّ. ويتجلّى وعيُ سيبويه لكيفية فهم كلام العرب، ودراسته بقوله في(مررتُ بقائماً رجلٍ): ((**فهذا كلام قبيح وضعيف. فاعرف قبحه، فإنَّ إعرابه يسير. ولو استحسناه لقلنا هو بمنزلة: فيها قائماً رجلٌ؛ ولكن معرفة قبحه أمثلُ من إعرابه**))[15]؛ فمهمة النحوي عند سيبويه لا تقتصر على معرفة الإعراب، والأولى له أن يعرف جهات صحة الكلام وقبحه، ولا يتأتّى ذلك إلا بعد معرفة أسرار الكلام وعلله تشفعه سليقة لغوية، وحسّ مرهب لا يتأتّى إلاّ لمن كانت العربية رفيقه ومؤنسه. والنحويّ عند سيبويه يجب أن يُعنى بما تكلّمت به العرب؛ لا بما لم يسمع منها؛ قال سيبويه: ((**وتُجْرِى هذه الأشياءَ التي هي على ما يَستخفون بمنزلة ما يَحذفون من نفس الكلام وممّا هو الكلام على ما أَجرَوْا فليس كل حرفٍ يحْذَفُ منه شيٌ ويُثْبَتُ فيه نحوُ يَكُ ويَكُنْ ولم أُبَلْ وأُبالِ، لم يَحملهم ذاك على أن يَفعلوه بِمثله ولا يحملهم إذا كانوا يُثْبِتون فيقولون في مُرْ أُمُرْ أن يقولوا في خُذْ أُوخُذْ وفى كُلْ أُكُلْ؛ فقف على هذه الأشياء حيث وقَفوا ثم فسَّرْ**))[16]؛ وأن القياس النحويّ له خصوصيته فقد لا يطرد في بابه، وبذا فهو أداة لفهم الكلام لا لتقييد الاستعمال. فمنهج سيبويه منهج الوصف

(14) البعد التداولي عند سيبويه : 249.

(15) كتاب سيبويه :124/2.

(16) كتاب سيبويه :266/1.

التفسيريّ[17]، ففي الوقت الذي يحافظ على المسموع والمروي من كلام العرب، يؤسس لحالة تالية يضع لها معياريته الخاصة لاستكشاف أنساق الكلام وتحولاته، وتفسير ظواهره. فالطريق الذي شقّه الخليل وسيبويه يرى أن كلام العرب بوصفها منجز من منجزات الإنسان بمنزلة البناء يبنيه الإنسان كما يبني بيته، فكانت هيكليته ومكوناته تستعير هيكلية البيوت ومكوناتها، فلقد تمّ رصد هندسة تلك البيوت وآلية ارتفاع جدرانها وترتيبها على نحو منظم وتراصف قطع اللبن فيها أفقيا وعموديا ليستقيم البناء، والإفادة منها في تفسير بناء الجملة وامتدادها، وترابط ألفاظها وتأثير بعضها ببعض. وهو أمر برز في عمل سيبويه بنحو واضح، فكانت البيئة مصدر إثراء في التأسيس لمرحلة جديدة من الدرس النحوي وهي مرحلة لفتت الأنظار إليها، برائدها الخليل وتلميذه سيبويه، تقوم على فكريّ تنظيريّ رصين لا ينفصل عن بيئته. بل انجازها تمّ على يد بعض أبنائها ممن لا يتعجب منه ذلك، فلا دخيلة فيه لتأثير خارجيّ كما يحلو لبعض الباحثين القول به.

تلك الحظوة التي ظهر بها في الكتاب لم تكن إلا انعكاسا لحضوره المهيمن على الدرس النحوي في زمنه؛ وما ورد في الكتاب فيه الغناء لبيان الفكر البنائيّ لدى الخليل وتلميذه، لكن النص الذي الذي أورده الزجاجي(ت337هـ) في كتابه الإيضاح في علل النحو عن الخليل يعدّ وثيقة من الخليل نفسه أبان فيها عن منهجيته؛ إذ أجاب عما وقع من استغراب أو استنكار لطرائقه في التعليل لكلام العرب؛ قال الزجاجي:

((ذكر بعض شيوخنا أنّ الخليل بن أحمد–رحمه الله–سُئل عن العلل التي يعتل بها في النحو، فقيل له:عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال:إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها واعتللتُ أنا بما عندي أنه علّة لما عللته منه، فإن أصبت العلة فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علة له فمَثَلي في ذلك مَثَل رجلٍ حكيم دخل داراً محكمة البناء؛ عجيبة النظم والأقسام؛ وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها، قال: إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا . سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة؛ إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإنه سنح لغيري علة لما عللته من

(17) يبدو أن هذا المنهج هو في الأصل منهج الخليل ويتضح ذلك من تتبع تعليلاته التي ذكرها سيبويه ، ينظر بحث: التَّعْليلُ فِي الدّرسِ النَّحْوِيّ (نظرةٌ في أُصُولِ اللُّغةِ) في غير موضع:

النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها))[18]، وهو طريق وصفها الزجاجي بقوله:**((وهذا كلام مستقيم وإنصاف من الخليل(رحمة الله عليه))**[19].

لقد صوّر الخليل موقفه من اللغة بما يألفه الناس، ويعجبهم في أحيان كثيرة وتأخذهم روعة بنائه، وقد ألفوا الحرمان من مثله، فأغلب سكنهم في بيوت من طين البصرة وقصبها وجريد نخيلها، وجذوعه، فكان لتمثيل الخليل ما يثير في النفوس التطلّع نحو ما سيقوله هذا الحاذق في أسباب هذا البناء وأوضاع جدرانه وأبوابه ونوافذه، على أن استغرابهم قد يلح عليهم فيقول واحدهم متعجبا: أين الخليل من هذا البناء؟!، وهو يعيش في خصّ لا يُشْعَر به، ترفعا عن تلك القصور التي لو أراد الوصول إلى مثلها لما أعجزته همته لكنه آثر الابتعاد عن التزلف لولاة عصره الظلمة. وعلى وفق هذا الوقع الاجتماعي لتشبيه اللغة بالبناء عمل الخليل مقاربته للكلام في بيان منهجيته، التي تدلنا على ما يأتي:

1. النظام النحوي يقوم على أسس عقلية، قائمة في عقول متكلمي تلك اللغة. ويمكن أن تكون تلك الأسس هي مجموعة الأصول التي ظهرت عند سيبويه في إطار نظرية الأصول النحوية عنده[20]، وهي التي تمثل المستوى القبلي المتحكم بطبيعة تكوين المستوى الظاهر وطبيعة التحولات التي تطرأ على الكلام
2. الكلام عبارة عن بناء (نسق) منظم. ويتخذ هذا النسق بعدين: أفقيّ وعموديّ.
3. تتخذ الجملة التكوين العمودي لوحداتها فمكونات الجملة ترتفع الواحدة فوق الأخرى.
4. تمثل كل لبنة في هذا البناء لفظة مرتبطة بلفظة أخرى في الأقل. وتتابعُ اللبنات يمثل سلسلة الكلام.
5. تتخذ اللبنة الأولى في هذا البناء موقع الأساس الذي ترتفع عليه بقية لبنات الصف، وبذا فكل لبنة فيه هي متعلقة في الأصل بذلك الموقع.
6. الاحتياج إلى الموقع الأساس يمثل الرابط بين لبنات البناء في الصف العمودي الواحد.
7. الكلام (الأداء) هو الذي يُعتمد للوصول إلى الكشف عن النظام اللغوي وقواعده التي تعطيه هذا الانتظام لا أن تعتمد المفاهيم المجردة لإقامة تصوراتنا حول ذلك النظام. لأن الدار واقع يتأمله الحكيم.

وقد عمل الخليل على توظيف تصوره البنائي لهيكل اللغة في الجملة العربية، وما قدمه تلميذه سيبويه في هذا الجانب يمكن أن يفسّر في ضوء النص الخليليّ، بل هو الذي أبرز ذلك النص بوصفه

(18) الإيضاح في علل النحو : 65- 66 .

(19) الإيضاح في علل النحو: 66 .

(20) للتفصيل : ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه :223-248.

عملا تنظيريا متقنا في تحليل الجملة العربية. ولعل أولى الملاحظات في هذا الإطار تكمن في دخول ألفاظ مادة (بنى) في النحو، وقد استعملها الخليل في كتابه الجمل في النحو بقوله في أم:((**ولذلك لا تجيء مبتدأة إنما تكون على كلام قبلها مبنية استفهاما أو خبرا**))[21]؛ وقال في موضع آخر:((**... فأما الذي هو اسم للفعل فمبني على الفتح لا يضاف ولا يدخله التنوين**))[22]. وكتاب سيبويه زاخر باستعمال هذه المادة فمن النظر إلى ترابط الألفاظ داخل الكلام فالثاني مبني على الأول، إلى حالة البناء المقابل للإعراب، إلى بناء المفردة؛ وقد أحصيت لهذه المادة في الكتاب(989) موردا. وهذا يشير إلى مدى تأثير فكرة البناء في نحو الكتاب.

لقد أكّد الخليل هذا المنحى الانشائيّ في تحليله لكلام العرب بقوة عندما صاغ مصطلحات الجملة الأساسية باعتماده على مادة (سند) فأطلق الإسناد على العلاقة النحوية بين طرفي الجملة، ومنها اشتقّ مصطلحي ركني الجملة، ولا يخفى رجوع المعنى اللغوي لهذه المادة إلى البناء لدلالتها على الارتفاع كالجبل ونحوه، فأطلق لفظة السند على المبتدأ ولفظة المسند على خبره؛ جاء في العين في مادة (**سند**) قوله:((**السَّنَدُ: ما ارتَفَعَ من الأرض في قُبُل جَبَلٍ أو وادٍ. وكلُّ شيءٍ أسْنَدْتَ إليه شيئاً فهو مُسْنَدٌ. والكلامُ سَنَدٌ ومُسنَدٌ كقولك: عبد اللهِ رجلٌ صالحٌ، فعبدُ الله سَنَدٌ ورجلٌ صالحٌ مُسنَدٌ إليه**))[23]. ويعني هذا أنّ وجود لفظة ما في الموقع الأول في الجملة (أساس البناء) ينتج لزوما وجود موقع ثانٍ يرتفع فوقه في اقلّ تقدير. فالكلمة الأولى اتسمت بقدرة موقعيّة ويُعبّر عن هذه القدرة بـ(إفراغ أو خلق مجالات نحوية) هي المحال التي تشغلها الأسماء للقيام بوظائفها في الجملة. وهو تصور لبناء الجملة يترسم معالم بناء الجدار كما هو واضح فوضع اللبنة الأولى يجعلها سبباً في إيجاد محل فوقها تشغله لبنة أخرى. وهكذا تتابع اللبنات الواحدة فوق الأخرى مع استنادها في الأصل على اللبنة الأولى العلة الأساس لإقامة البناء[24]. ولكننا نلحظ أن هذه الرؤية قام سيبويه بتطويرها كما سيأتي لاحقا.

من جانب آخر فان ترسّمٌ معالم البناء في النحو كان له أثره في التأسيس لنظرية العامل، التي كان فيها للعلماء والباحثين جولات من الأخذ والرد، بعد أن اصطبغت بصبغة فلسفية، أو منطقية غير النظرة السيبويهية[25]. ذلك لأننا استنادا إلى تداولية هذه اللفظة في تلك الحقبة التي ظهرت فيها نظرية العامل

(21) الجمل في النحو للخليل:339.

(22) الجمل في النحو للخليل: 338.

(23) العين: 7/228–229.

(24) ينظر:المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه"دراسة وتحليل ":10، وتكوين الجملة وامتدادها عند سيبويه في ضوء منهجه التفسيري للنحو:85.

(25) ينظر: المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه "دراسة وتحليل ": 6 وما بعدها.

في الكتاب نظنّ أن هناك ربطا بين اختيارها للدلالة النحوية الجديدة ودلالتها اللغوية أو العرفية، فقد ذكر صاحب العين ما يدل على تعلّقها بحقل (الإنشاء والبناء) فالعامل((**والعَمَلَةُ: الذين يعملون بأيديهم ضروباً من العَمَل حَفْراً وطيناً ونحوه... وتقول: أعطِهِ أَجْرَ عملته وعمله. ويقال: كان كذا في عملة فلانٍ علينا، أي: في عمارته. ورجُلٌ عِمّيلٌ: قويّ على العمل. والعَمولُ: القويُّ على العمل، الصابر عليه، وجمعه: عُمُلٌ. وأَعْمَلْتُ إليك المطيَّ: أَتْعبتُها. وفلان يُعْمِلُ رأيه ورُمْحَه وكلامه ونحوه عَمِلَ به. والبنّاء يستعمل اللّبِنَ إذا بنَى**))[26]. فالربط واضح بين العامل في النحو وما يمكن أن يمثله البنّاء في المحيط الاجتماعي، فالعامل هو الذي يبني الجملة، وهو تصوّر يعود بالعامل إلى معطيات لغوية– مكانية، وينأى به عن الجدل الذي قام حول نظرية العامل بين المتأخرين وفي العصر الحديث. ولو تأمّلنا ذلك لوجدنا أن عامل الجملة هو اللبنة الأولى، وهي اللفظة التي تشغل موقع المسند. وعملها لا يقتصر على الجانب التكويني(المجرد) بل إنّ التكوين يمتد ليفسر بقية الربط بين مكونات الجملة وموقع السند في البداية، ولكنه يفيد من الجانب الدلالي للألفاظ (الاعتداد بسمات المسند الدلالية) لاسيما فيما يقدّمه سيبويه في هذا الجانب[27]، بل إنّه في المفاعيل التي تلي المفعولين(الثلاثة) يبدأ العامل النحوي والدلالي بالضعف ليتمّ تقوية الربط من جانب آخر يتمثّل بمتطلبات العملية الكلامية التي تدخل فيها رغبة المتكلم. وأهمية هذا الجانب في النحو العربي واضحة، وهي بحاجة إلى تفصيل ليس هذا محله.

ويبدو واضحا أن سيبويه قد آثر نظرة أستاذه فطفق يستعمل مصطلحاته البنائية، الدالة على هيكلية معمارية في عموم المصطلحات النحوية فمن حالات الإعراب (النصب والرفع والجر أو الخفض) التي استعيض بها عن الحالات الصوتية(الفتح والضم والكسر) إلى التعبير عن ملازمة الكلمة لحالة واحدة أُصطلح عليها بالبناء في قبالة التغير(الإعراب) إلى مصطلحات أركان الجملة الأساسية، وعلاقات الربط بين الوظائف داخل الجملة.

وكان لهذه الصورة الإنشائية صدى في ترتيب الأبواب النحوية فمواضع النصب كانت مقدمة في كتاب الجمل المنسوب إلى الخليل بن أحمد، وفي كتاب سيبويه، وإذا كان كتاب الجمل لا يسعفنا في الوقوف على سبب هذا الاختيار من الخليل نفسه لاختصاره فعند سيبويه الكثير الذي يُظهر النصب بوصفه موضع العمل الحقيقيّ للعامل النحوي، لأنّ موضع الرفع الرئيسي في الجملة وهو المسند إليه ملازم للمسند(فعلا أو اسما)، وهذا التلازم لا يظهر عمل المسند بوضوح. فكان النصب هو ميدان العمل النحوي، لأن الوظائف المنصوبة تلبي احتياجات العامل الرئيسيّ في الجملة(المسند) وتلبي حاجة المتكلم، وهو أمر ينسجم مع الدلالة المتداولة في أيامهما للفظة (نصب) المنتمية إلى حقل الإنشاء، فقد

(26) العين:154/2.

(27) وذلك في باب الاستقامة من الكلام والإحالة وهو الباب السادس من مقدمة كتابه وفي مواضع أخرى من كتابه.

جاء في العين قوله: ((**النَّصَبُ: الإعياء والتَّعَبُ... والنُّصُبُ: حَجَرٌ كان يُنْصَبُ فيُعبَدُ وتُصَبُّ عليه دِماءُ الـذَّبائِح وجمعُـه أنصابٌ.والنُّصُـبُ: العَلَـمُ. والنُّصُـبُ: جماعـة النَّصـيبة، وهـي علامـة تُنْصَـبُ للقوم...والنَّصيبَةُ واحدةُ النَّصائب، وهي نَصائبُ الحَوض، وهي حِجارةٌ تُنْصَبُ حَوالَي شفيره فتُجْعَل لـه عَضائد. والنَّصبُ: رَفْعُك شيئاً تَنْصِبُه قائماً مُنتَصِباً. والكلمةُ المنصوبةُ يُرفَع صوتُها الى الغار الأعلى. وناصَبْتُ فلاناً الشَّرَّ والحَرْبَ والعَداوةَ ونحوها. وكلُّ شيءٍ استقبَلْتَه فقد نَصَبْتَه. وتَيْسٌ أَنصَبُ، وعَنْزَةٌ نَصْباءَ، أي منتَصِبُ القَرْن. وناقة نَصباء: مُنْتَصِبَةٌ مُرْتَفِعَةُ الصَّدْرِ**))[28].

فدلالات ألفاظ هذه المادة ترتبط بالارتفاع والجهد، ورفعك الشيء يستوجب الجهد, وفيهما جانبي البناء والعمل. مع انسجام هذه الدلالة مع وضعية النطق التي يتخذها اللسان بارتفاعة قليلة نحو سقف الفم(الغار). كما أنه عبر عن الموضع الأول للنصب وهو المصدر المنصوب بفعله بأنه حمل على فعله من ذلك قوله في العين:((**التبُّ الخسار، وتبا له، نصب لأنه مصدر محمول على فعله كما تقول: سقيا لفلان، ومعناه: سُقي فلان سقيا، وتبّ يتب تبابا وتبا، ولم يجمع اسما مسندا إلى ما قبله**))[29]، فمحمول لفظة تضاف إلى الألفاظ الدالة على الارتفاع والبناء. ومن استعمالاتها البارزة الحمل على المعنى[30]، ولقد اتّخذ النصب منزلة وسطى بين الرفع والخفض(ولا يخفى تعلق هاتين اللفظين بمجال البناء)؛ لأن الرفع استعمل نقيض الخفض وهو الجر، كما في العين بقوله:((**والرَّفْعُ: نقيضُ الخَفْضِ. قال:**

فاخْضَعْ ولا تُنْكِرْ لربّك قُدْرةً ... فالله يخفض من يشاء ويرفع

والرّفعة نقيض الذّلّة.))[31].

المحور الثالث

الأثر التداوليّ للمتكلم في البناء النحويّ

الملاحظة الأولى التي تستوقفنا هنا أنّ سيبويه لم يرتض اصطلاح أستاذه الخليل على ركني الجملة بـ(السند والمسند)؛ بل عمد إلى صياغة مطوّرة عنهما فاستعمل مصطلحي المسند والمسند إليه؛ وهو ما نجده في أولى صفحات الكتاب بقوله:((**هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يَغْنَى واحدٌ منهما عن الآخر ولا يَجد المتكلّمُ منه بداً فمن ذلك الاسمُ المبتدأُ والمبنيُّ عليه وهو قولك: عبدُ الله أخوك، وهذا**

(28) العين :

(29) العين : 110/8 .

(30) ينظر: كتاب الجمل في النحو:65، و126و168 وغيرها.

(31) العين:125/2.

أخوك؛ ومثل ذلك يذهب عبد الله. فلا بدَّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأوَّلِ بدٌ من الآخرِ في الابتداء))[32]. فاختار لفظة(مُسْنَد عوضا عن مصطلح أستاذه سند، واختار المسند إليه عوضا عن المسند) **((وهو استعمال أكثر إيحاءً إلى أثر المتكلم في صياغة الجملة فهو الفاعل الحقيقيّ للكلام الذي يقوم بوضع هذه اللفظة أولاً وفي (المَسند) وصياغتها على وزن اسم المفعول من الرباعي(أسند) إشارة إلى تأثر هذه اللفظة أو تقبلها لفعل سابق هو فعل المتكلم الذي أنشأها في أول الكلام؛ على حين أن (سند) لا يلمح منها هذه الدلالة فكأن سيبويه أراد أن يشير إلى البنّاء الحكيم الذي أنشأ الدار. ولا يغيب عنا أن فهم الجملة يتوقف في بعض مجالاته على تحديد هوية المتكلم ومقصده وبخاصة في إدراك المحتوى الدلالي للجملة))**[33].

وهو أمر لم يتنبّه له الخليل فأقام تصوره للجملة (سند + مسند)على بعد لغوي صرف لبناء الجملة بإرجاعه ذلك إلى اللفظة الأولى في الجملة. على حين إنّ تطوير سيبويه لبنائية الجملة توّج بنظرة تداولية، نحو البعد الاجتماعي لبناء الجملة، فصوّر بذلك مجالا من مجالات عدة لفهم الجملة، تدخل فيه العلاقات السياقية التي تلحظ في سلسلة الكلاميّة، على نحو يتم النظر إلى الكلام بوصفه عملية تفاعل بين المتكلمين، وهو يعمل على التكيّف لمتطلبات الحياة الاجتماعية، ومتطلبات التواصل بين الأفراد، وهو تحوّل مهِّم تمّ رصده في اللسانيات المعاصرة فـ**((نلاحظ النقلة النوعية في اللسانيات التداولية التي تجاوزت في دراسة الإنتاج اللغوي البنية الصوتية والنحوية والدلالية إلى البحث في الآثار الاجتماعية والإنجازية للغة، فأصبحت اللغة في ظل هذا التحوّل فضاء للإنجاز والممارسة والفعل، حيث الأمر والنهي والاستفهام ، وغيرها مما يمثل إنجازات لغوية))**[34].

كما نظر إلى الجملة بكونها نسج من المعلومات يتم تبادلها بين المتكلمين، لكن هذه المعلومات متفاوتة في أهميتها للمخاطب فبعضها يعلمها المخاطب، والأخرى جديدة، وفي ظل جملة من التوافقات بين طرفي العملية الخطابية(المتكلم والمخاطب)على نحو يشبه ما عرف عند بعض الوظيفيين بمبدأ التعاون[35].

---

(32) كتاب سيبويه:23/1.

(33) تكوين الجملة وامتدادها عند سيبويه:85.

(34) المرجعية اللغوية في النظرية التداولية:12.

(35) تقوم قواعد التخاطب عند غرايس على مبدأ التعاون، فالممارسة اللغويّة عنده نشاط عقلي هدفه التعاون بين المتخاطبين، وينصّ غرايس على مبدأ التعاون بقوله:((**اجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلّبه، في مرحلة حصولها، الغرض أو المآل المسلّم به من التخاطب المعقود))**. ينظر: الاقتضاء في التداول اللساني:146، وينظر: اللغة والمعنى والسياق:228-239.

على ذلك فان أساس بناء الجملة يتمّ استثماره وظيفيا فيحتل المسند موقع المعلومة المشتركة ويحتل المسند إليه موضع المعلومة الجديدة[36]. وقد أدرك سيبويه هذه النظرة الوظيفية بقوله: **((لأنه إنما ينبغي لك أن تَسْأَلَه عن خبرِ مَن هو معروفٌ عنده كما حدَّثته عن خبر من هو معروفٌ عندك فالمعروفُ هو المبدوءُ به ولا يبدأ بما يكون فيه اللبسُ وهو النكرة أَلا ترى أنَّك لو قلت كان إنسانٌ حليما أو كان رجل منطلقاً كنتَ تُلْبسُ لأنَّه لا يُستنكَرُ أن يكونَ في الدنيا إنسانٌ هكذا فكرهوا أن يَبْدَءوا بما فيه اللَّبس ويَجعلوا المعرفة خبراً لما يكون فيه هذا اللبسُ))**[37]، وهو من الأصول المقررة عند سيبويه بقوله:**((وأَحسنُه إذا اجتَمع نكرةٌ ومعرفةٌ أنَ يبتدئَ بالأَعْرَفِ وهو أصل الكلام))**[38]. ويلحظ أن ذلك صيغ قواعديا بعدم جواز الابتداء بالنكرة.

ولكن هذه النظرة الوظيفية للجملة متحولة بسبب عوامل متعددة. فقد يشغل هذين الركنين معا موضع المعلومة المتواطأ عليها فيكون موضع المعلومة الجديدة في المراتب النحوية التالية كالمفاعيل، ويتم بذا إعادة صياغة الجملة وظيفيّا كما في قوله تعالى:﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾(الأنبياء16)؛ فالحال لاعبين يمثّل المعلومة الأهم في الجملة فاثبت خلق السماء والأرض وزاد أن خلقها لم يكن لعبا.

على وفق ذلك سنجد تحوّلات كثيرة تطال الجمل على ما يحتمل من مقامات تجعل صورتها التداولية مختلفة عما يُرى من صورتها النحويّة. ومن هنا فمعظم التحولات التي تطرأ على النمط الأساسي للجملة العربية من مثل التقديم والتأخير والحذف واختزال الفعل تتم بدوافع تداولية، وهو أمر لم يغب عن سيبويه أن يسجله في كتابه العتيد؛ فالمتكلم يستعمل نمط الجملة البنائيّ والدلاليّ لإظهار قصده؛ ففي قولك: ضربت زيدا ((**إن قدمتَ الاسمَ فهو عربيٌّ جيّد كما كان ذلك عربيّا جيّدا، وذلك قولك: زيداً ضربتُ؛ والاهتمامُ والعنايةُ هنا في التقديم والتأخير سَواءٌ مثلُه في ضَرَب زيدٌ عمرا وضَرَبَ عمراً زيدٌ))**[39]. فالعناية والاهتمام المشار إليهما قرينة خارجية لا قرينة لغويّة، وهي قرينة يقدّر المتكلم أهميتها لدى المخاطب، ولا تخفى قرينة الإعراب في إبراز العناية والاهتمام.

ويعمل سيبويه على تأكيد هذا الجانب بأن من الكلام مالا يراد منه مقتضى ظاهر بنائه بقوله:**((وأمّا ما يَنتصب في الاستفهام من هذا الباب فقولُك أَقِياماً يا فلانُ والناسُ قعودٌ وأَجُلوساً والناسُ يعدُون؛**

(36) تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الجانب النحوي الوظيفي لا يقتصر في تكوينه على المعلومات التي تتأتى له من دلالة الألفاظ المفردة، بل بما تفرضه تلك الدلالة من آثار على تكوين الجمل وطبيعة الوظائف التي يمكن أن تؤديها،

(37) كتاب سيبويه :48/1.

(38) كتاب سيبويه:328/1.

(39) كتاب سيبويه:80/1-81.

لا يريد أن يُخبِر أنه يَجلس ولا أنَّه قد جلس وانقضى جلوسُه ولكنه يُخبِر أنَّه في تلك الحال في جُلوسٍ وفي قيامٍ. وقال الراجز وهو العّجاج :(أَطَرَباً وأنتَ قِنَّسْرِيُّ)، وإنّما أراد أَتَطْرَبُ أي أنت في حال طَرَبٍ ؟ ولم يُرِد أن يُخبِر عما مضى ولا عما يُستقبَل. ومن ذلك قول بعض العرب أَغُدّةً كغُدّة البعير، ومَوْتاً في بيتِ سَلُولِيَّةٍ كأَنه إنما أراد أَأَغَدُّ غُدّةً كغُدّة البعير، وأَموتُ موتا في بيتِ سَلوليّةٍ، وهو بمنزلة أَطَرَباً وتفسيره كتفسيرِه))[40].

ومع حرص سيبويه على إظهار البنية الأصل لهذا الأسلوب يؤكّد أنّه لا يراد من هذه التراكيب الإخبار أو الاستخبار بالقدر الذي يريد المتكلم تنبيه المتلقي إلى قصده من الإنكار، أو التحسّر.

ويقول سيبويه:**((هذا باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخَذْ من الفِعل مجرى الأسماءِ التي أُخذت من الفعل؛ وذلك قولك أَتَميمِيًّا مرّة وقَيْسِيًّا أُخْرَى؛ وإنَّما هذا أنَّك رأيتَ رجلا في حال تَلَوُّنٍ وتنقُّلٍ فقلتَ أَتميميّا مرّةً وقيسيًّا أُخْرَى كأنك قلت أتحول تميمياً مرة وقيسياً أخرى فأنت في هذه الحال تَعمل في تثبيتِ هذا له وهو عندك في تلك الحال في تَلَوُّنٍ وتنقُّلٍ وليس يَسأله مسترشِداً عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهَّمَه إيّاه ويُخبِرَه عنه ولكنه وبَّخه بذلك. وحدّثنا بعضُ العرب أنّ رجلاً من بني أَسَدٍ قال يومَ جَبَلَةَ واستَقبله بَعِيرٌ أَعْوَرُ فتَطَيَّرَ منه فقال يا بني أسد أَعْوَرَ وذا نابٍ فلْم يرد أن يَسترشدهم ليُخبِروه عن عَوَرِه وصحّته ولكنه نَبَّهَهم كأَنه قال أَتَستقبلون أَعْوَرَ وذا ناب فالاستقبالُ في حال تنبيهه إيّاهم كان واقعاً كما كان التلوُّنُ والتنقُّلُ عندك ثابتينِ فى الحال الأوّل وأراد أن يثبّت لهم الأعورَ ليَحذروه))**[41].

ويبدو أن سيبويه هنا أراد أن يظهر أن البنية التركيبية طيّعة في إظهار هذه المقاصد الوظيفية بما يوفره سياق إنجازها سواء أكان التركيب معتمدا على البنى الفعلية(ومنها المصدر) أو بنى اسمية كما في النص. وهذا السياق هو العنصر غير اللغوي الفاعل في فهم الجملة ههنا ومن ثمّ أظهار المراد منها: استنكاراً أو تعجباً أو تحسراً، أو توبيخاً أو تطيُّراً وغير ذلك.

المحور الرابع

الافتراض السياقي للخطاب(الخُلْف)

لا يخفى فيما تقدّم أن سيبويه اكتنز عنصر المكان في بعد تحليليّ آخر لفهم الكلام وهو ما أطلق عليه سيبويه نفسه(الحال)، وهو سياق واقعي للكلام لكننا وجدنا أن سيبويه في مواضع كثيرة يعمد إلى وضع سياق افتراضي يستوحيه من التركيب نفسه يعمل على تمثّله بوصفه ظرف الجملة الخارجي، ولما

(40) كتا سيبويه:338/1.

(41) كتاب سيبويه:343/1.

كان هذا السياق افتراضيا وهو يرتكز على مكونات الجملة وعلاقاتها فهو يمثّل(المحتوى الدلالي للجملة). وهو كما يبدو محاولة من سيبويه للعودة بالجملة موضع التحليل إلى محيطها التداولي الذي ولدت فيه. ولا يبعد إفادة سيبويه وأستاذه مما يصاحب بعض التراكيب التي تجري على ألسنة الناس مجرى المثل، ليؤسسا للتحليل السياقي في النحو العربي، وهي طريقة قريبة الشبه بالطريقة التفسيرية في فهم النصوص القرآنية بالاعتماد على أسباب نزولها. ومن ثمّ كان الانتقال من تفسير التراكيب التي ذكرت معها مقاماتها إلى تفسير تراكيب افتقرت إلى سياقاتها، معتمدين في ذلك تشابه الأنماط وطبيعة العلاقات بين مكونات تلك التراكيب ودلالات ألفاظها.

إن التأطير التداوليّ الذي أسبغه سيبويه على الكلام لم يكن لمحة عابرة في منهجه النحويّ بل إنّ تتبع الأمثلة والتريث في النظر إليها يُبيِّن أنّ طائفة من أبواب الكتاب تمّ صياغتها طبقا لوضعها المقامي أو وظيفتها التداولية ومن أمثلة ذلك قوله: **((هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه؛ تقول أتاني زيد الفاسق الخبيث لم يرد أن يكرره ولا يعرفك شيئا تنكره ولكنه شتمه بذلك. وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾(المسد4)!، لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة، ولكنه كأنه قال: أذكر حمالة الحطب شتما لها، وإن كان فعلا لا يستعمل إظهاره. وقال عروة الصعاليك العبسي:**

سَقَوْني الخَمْرَ ثمَّ تَكنَّفوني ..... عُداةَ الله من كَذِبٍ وزُورِ

إنما شتمهم بشيء قد استقرَّ عند المخاطبين))[42]. فقد تحولت الأوصاف التي يعلمها الناس (معلومة مشتركة) إلى أن تكون مركبا للمعلومة المهمة وهي القصد(الشتم).

لقد أرسى سيبويه أسس تحليله لكلام العرب على مسوغات من توجهات المتكلمين والمخاطبين وغائبين يمكن ملاحظتهم في الجملة وظلالها، فلكلٍّ أثره في الكلام، وأنماطه والوظائف المطلوب إبرازها في الجملة، فالنحو عنده علم يتوجه إلى الكلام بوصفه تداولا، وإنّ للألفاظ وعلاقاتها أثرا واضحا في الكشف عن سمات هذا التداول. ويبدو أن سيبويه قد تنبّه إلى الجانب الأساس من اللغة وهو الكلام ولم يغب عنه أنّ الكلام انجاز يؤديه المتكلم في إطار من المؤثرات الخارجية التي تتحكم بتوجهات المتكلم وتبعا لذلك تتحكم بالحدث اللغوي(الكلام)؛ وذلك بمحاولاته الدؤوبة لاستعادة السياقات التي وُلِدت فيها العملية الكلامية؛ وهي عناصر خارج الكلام ووحداته الصغرى أو الكبرى لكن الكلام يستطيع أن يختزن داخله تلك العناصر الخارجية. وقد استعملنا له(المحتوى الدلالي للجملة) ونعني به: كلّ سمة من سمات

(42) كتاب سيبويه: 70/2.

المعنى التي تمتلكها ألفاظها مفردة ومركبة، مع سياق مقامها الذي قيلت فيه وقدرتها على تزويد النحوي أو المتلقي بما يمكنه من استعادة الملابسات التي اكتنفت ولادة الجملة [43].

ويبدو سيبويه على وعيٍ كامل بأهمية هذا السياق الافتراضي في إعادة رسم صورة المقام الذي ولدت فيه الجملة لفهم ما طرأ على وحداتها من تغييرات نحوية لا تتضح لولا هذه الاستعادة أو الاستحضار. ولقد تمثّل وعي سيبويه في أرقى أمثلته أنْ استعمل مصطلحا خاصا لهذا الجانب من فهم الكلام، وهو مصطلح(الخُلْف) ولكننا لم نجد أنّ هذا التوجّه السيبويهيّ قد حظيَ عند الخالفين باهتمام يوازي أهميته وفاعليته في فهم النحو العربي. وكان سيبويه قد ذكر(الخُلْف) في موضعين من كتابه، مع مواضع أخرى طبّق فيها سيبويه مفهوم مصطلحه.

تأصيل مصطلح الخلف:

ذكر للخلف معان استعملها العرب وتعارفوا عليها منها الخلف ضد قدّام ، وهو خلفي أي ورائي، ومنه الخلف الظهر، والخَلَف يخلف غيره، وقال في العين:((**والخَلَفُ: من الصالحين، ولا يجوز أن يقال: من الأشرار خَلَفٌ، ولا من الأخيار خَلْفٌ**))[44]. وقيل غير ذلك وذكره البطليوسيّ في المثلث[45]، واستعمل سيبويه الخلف في مواضع من كتابه فخَلْف من الظروف قال:((...**وأما خلف فمؤخر الشيء وأمام مقدمه وقدّام بمنزلة أمام وفوق أعلى...وهذه الأسماء تكون ظروفاً**))[46]. كما استعمل(خَلَف) لما يخلف غيره ويقوم مقامه((**وكأن الاسم والله أعلم إله فلما أدخل فيه الألف واللام حذفوا الألف وصارت الألف واللام خلفا منها فهذا أيضا مما يقويه أن يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف**))[47]؛ وقال أيضا:((**وإنّما منعك أن تحمل الكلام على من أنّه خلف أنْ تقول:ما أتاني إلا من زيد، فلما كان كذلك حمله على الموضع فجعله بدلا منه**)) واستعمل خَلْف بمعنى المخالفة والكلام غير المستقيم))[48]، وقال: ((**ترى أنّك تقول: ما أتاني من أحد لا عبد الله ولا زيد؛ من قبل أنه خَلَف أن تحمل المعرفة على من في ذا الموضع**))[49]

(43) ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه: المبحث الأول من الفصل الرابع: 190 وما بعدها.
(44) العين: 4/ 266.
(45) ينظر المثلث484/1.
(46) كتاب سيبويه: 233/4.
(47) كتاب سيبويه:195/2.
(48) كتاب سيبويه:315/2.
(49) كتاب سيبويه: 317/2.

أما دلالته على ما تقدّم من تحليل الجملة وما يكون من متعلقات الجملة الخارجية فقد ضبطه المحقق بالضم(الخُلْف) في الموضعين اللذين استعمل فيهما.

الموضع الأول: قوله:((**وتقول: إني عبدُالله؛ مُصغِّراً نفسه لربّه، ثم تفسر حال العبيد فتقول: آكلاً كما تأكل العبيد. وإذا ذكرتَ شيئاً من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن يظهر بعدها الاسم إذا كنت تخبر عن عمل، أو صفة غير عملٍ، ولا تريد أن تعرّفهُ بأنّه زيدٌ أو عمرو. وكذلك إذا لم تُوْعِد ولم تَفخر أو تصغِّر نفسك؛ لأنّك في هذه الأحوال تعرِّف ما تَرى أنه قد جُهل، أو تُنزِل المخاطب منزلة من يجهل فخراً أو تهدُّداً أو وعيداً، فصار هذا كتعريفك إيّاه باسمه. وإنّما ذكر الخليل– رحمه الله– هذا لتعرف ما يُحال منه وما يحسن؛ فإنّ النحويين مما يتهاونون بالخُلْف إذا عرفوا الإعراب. وذلك أنّ رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يُخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمرٍ فقال: أنا عبدالله منطلقاً، وهو زيدٌ منطلقاً، كان محالاً؛ لأنّه إنّما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو، ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر، وإنّما يُضمِر إذا عَلِم أنّك قد عرفت من يعني؛ إلاّ أنّ رجلاً لو كان خلفَ حائط، أو في موضعٍ تجهله فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبدُالله منطلقاً في حاجتك كان حسناً**))[50].

فالجملة: أنا عبدالله، آكلا كما تأكل العبيد، جملة غير مقبولة لأنه لا يريد أن يكون عبدالله خبرا للضمير؛ إذ لا يستعمل الضمير إلا بعد معرفة المعني به؛ لكن سيبويه يأتي إلى جهتين لتصحيح الجملة: أولهما اعتماده على ما تعارف عليه الناس، فلفظة عبدالله ليست خالصة في الاسمية، فما تزال دلالتها على صفة العبودية لله قائمة في تداول الناس؛ فكأنه أراد تصغير نفسه أو نحو ذلك. والجهة الثانية جهة اشتراك المتكلم مع المخاطب في المكان فعدم تمكن المخاطب من رؤية المتكلم، كان له الأثر في صحة الجملة، فافترض أن المتكلم لو كان خلف جدار لصحّ أن يقول أنا عبدالله وإن لم يرد أن يخبر أنه عبدالله، بل ليخبر أنه منطلق في حاجة أو نحو ذلك. فتسييق الجملة مكانيا واجتماعيا هو من جملة ما تفرّد به الخليل وسيبويه في تحليلهم لكلام العرب؛ وأنّ لدرسهما النحوي خصوصية لم يشركهما فيه أحد. كما يتضح أنّ سيبويه استعمل الخُلْف للدلالة على كل ما يمكن أن يكون من مواقف غير لغويّة لها علاقة مباشرة بتكوين الجملة على هيأة خاصة وهذه الهيأة لها أثر واضح في عملية استعادة تلك المواقف وإعادة عرضها بوصفها سياقا افتراضيا. ما يؤكد الصبغة الإنجازية للجمل، وأن على النحويّ أن يفهم كلّ جملة في ظل ظروفها الخاصة التي ولّدتها. وأنّ لكل منها دوافع تتداخل ما بين المتكلم والمخاطب والبيئة

(50) كتاب سيبويه: 2/80–81.

المتعلقة بينهما، تتحملها تلك الجملة ووظيفة النحوي الكشف عن تلك العلاقات التي لها مسيس علاقة بانجاز الكلام.

الموضع الثانيّ الذي استعمل سيبويه فيه الخُلف قوله: **((ومن ذلك أيضاً أن ترى رجلاً قد أوْقَعَ أمراً أو تعرَّض لِه فتقول متعرِّضاً لعَنَنٍ لم يَعْنِه أي دنا من هذا الأمر متعرِّضاً لعَنَنٍ لم يَعنِه وتَرَكَ ذكرَ الفعل لما يَرى من الحال ومثله بَيْعَ المَلَطَى لا عهدَ ولا عقَدَ وذلك إنْ كنتَ في حال مساومةٍ وحالِ بيعٍ فتَدَعُ أُبابِعُك استغناءً لما فيه من الحال ومثله (مَواعيدَ عُرْقوبٍ أخاه بَيثْرِبِ) كأَنه قال: واعَدْتَني مَواعيدَ عرقوبٍ أخاه ولكنه ترك واعدتَني استغناءً بما هو فيه من ذكر الخُلْفِ واكتفاءً بعلم من يعني بما كان بينهما قبل ذلك))**[51].

فتصوّر وقوع الجملة في"سياق الحال" يجعل التركيب ذا فائدة. ونرى أنّ محاولة سيبويه في هذا الجانب أدّت إلى استكناه البنية الدلالية للجملة. وقد نصّ سيبويه ههنا على ذكر(الحال) وهو الموقف بكل جوانبه ذات الصلة بالممارسة اللغوية. واستعمله قريباً من المصطلح اللساني لـ(سياق الحال Context of situation) على أننا نميّز ههنا بين ما ذكره سيبويه في أغلب تحليلاته أنه سياق افتراضي لا حقيقيّ كما في سياق المقام، ولقد وهم كثير من الباحثين[52] في عدّ ما جاء به سيبويه بوصفه سياق حال وما هو إلا المحتوى الدلالي للجملة أو**(الخُلْف)** بمصطلح سيبويه.

إنّ النحو عند سيبويه في ظل هذا التوجه نحو فهم الجملة هو نحو أداء وانجاز، ونحو حدث يقع في عملية تخاطب؛ وليس النحو مختصرا على كونه نحو تعلق وبناء وتركيب، أو نحو أصول وأقيسة. ولقد عمد سيبويه ههنا إلى توثيق مأخذه على نحويي عصره الذين – على ما يبدو– انصب جهدهم على معرفة الإعراب، وهو المظهر الشكلي للكلام. على حين صوّر هذا التوجه الوظيفي عند سيبويه عبر تعلقه بعناصر من خارج الجملة ضرورة منهجيّة في تكامل فهم الجملة وتكامل مجالات تحليلها. وقد كان ظهوره فعّالاً في طائفة من التركيبات المتداولة التي اشتملت على نقص ما في بنائها من نحو: القرطاسَ والله، وحديثَك، وغيرها. ولقد أتاح هذا الموضع فرصة تحليلية لإشراك البيئة البصرية عبر مظاهر متعددة استوحاها سيبويه منها.

(51) كتاب سيبويه:272/1.

(52) ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث: و دور السياق في منهج التحليل النحوي عند سيبويه

وهو موضع يكشف لنا أنّ الدرس اللساني في الكتاب يختلف عمّا عند بقية العلماء فقد كان جديداً كلَّ الجدة. ومثّل مرحلة النظر العميق للجملة، وكما نضج بسرعة. فقد أَفل نجمه بسرعة إذ كُتبت الغلبة للذين كان جلّ همّهم معرفة الإعراب وتغليب الأقيسة.

لقد((**خطّ الخليل وسيبويه للنحو العربي ما نذهب إلى أنّه رؤية جديدة في فهم الجملة وتحويلاتها تمثلت في طائفة النصوص التي تتم دراسة الظاهرة النحوية على وفق ما يمكن أن تحيل إليه من اعتبارات المكان والزمان وطرفي عملية التخاطب(المتكلم والمخاطب)اللَذيْن غالباً ما يتخذان وظيفتي(السائل والمجيب)، وهي الاعتبارات التي يتبناها الوظيفيون المعاصرون**))[53].

وكان بعض الباحثين قد توقف عند ما جاء به سيبويه في هذا المجال، ثم قال:((**وللأسف لم أجد من شراح الكتاب ولا ممن جاء بعده من توقف عند هذا المفهوم ، فقد ظل نسيا منسيا وهذا لعمري إجحاف في حق الرجل الذي نصب أعلام النحو. وما قيل عن القدامى يقال عن المحدثين لا فرق في التقصير**))[54] ومع اتفاقنا مع الباحث في تأسُّفه أنوّه إلى أني عبر فرصة أُتيحتْ لي للتأمّل والنظر مليّا في كتاب سيبويه كنت أول من عمل على إبراز مفهوم سيبويه للخُلْف(على حد اطلاعي وبالنظر الى ما ذكره الباحث في قوله الآنف الذكر) بوصفه جزءاً من المجال الرابع من مجالات التحليل النحوي عند سيبويه وهو مجال المحتوى الدلالي للجملة[55] .

(53) مفهوم الجملة عند سيبويه:201.

(54) البعد التداولي عند سيبويه:256.

(55) كان ذلك عند إعدادي للدكتوراه وكان عنوان الأطروحة: مفهوم الجملة عند سيبويه، ومجالات التحليل النحوي لمفهوم الجملة العربية عند سيبويه هي:

1- مجال الأصناف(المقولات) Categorips: وهو المجال الذي يتم فيه تصنيف المفردات الرئيسة والفرعية. ويمثل هذا المجال اللبنة الأولى للمنهج وأهمية هذا المجال تكمن في أنه يقدم السمات المميزة للصنف أو للمفردة التي تندرج فيه سواء أكانت هذه السمات بنائية أم دلالية.

2- مجال العملGovernment: وهو مجال الربط بين الأصناف لتكوين نسق الكلام، ويعمل على الإفادة من السمات الخاصة بكل صنف في تمثيل البنية الدلالية للجملة.

3- مجال البنية Structure:البنية هي النسق البنائي الذي تتخذه المفردات (الوظائف) داخل الجمل،ومن أبرز نتائجه تقديم بنية افتراضية الأصل للجمل في العربية .

4- مجال المحتوى الدلالي: مجال فهم الجملة وإدراكها ويعد تركيب ما صحيحاً إذا كان باستطاعة المخاطب إدراك محتواه الدلالي(الواقعي والمفترض)؛ والمحتوى الدلالي هو معنى الجملة مقترناً بالمقام والسياق اللغوي، والبحث فيه يتجه نحو الناحية الوظيفية(التداولية)، وبيان أثر المتكلم والمخاطب في امتداد الجملة وانتهائها بالسكوت.

ونرى أن لا نقصر هذا التأسف على هذا الجانب من التحليل النحوي في الكتاب بل يمتد إلى ما نراه طمسا للنظرية النحوية في الكتاب، واعتقد أن ذلك نشأ من عدم القدرة على استيعاب ما أتى به سيبويه من طرائق تحليل الكلام، ثمّ الميل نحو أسلوب تعليمي مبسط ينشده المعلمون لتلامذتهم؛ بل أخذوا يجتزئون من الكتاب على موضع الحاجة.

ومن أماكن الاختيار المؤديّة لظهور الإضمار قول سيبويه: **((هذا باب ما يُضمر فيه الفعل المستعمل إظهار في غير الأمر والنهي، وذلك قولك: إذا رأيت رجلاً متوجّهاً وجهة الحاجّ قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: مكةَ وربِّ الكعبة؛ حيث زَكنْتَ أنّه يريد مكة، كأنك قلت: يريد مكة واللهِ. ويجوز أن تقول: مكةَ واللهِ، على قولك: أراد مكّة واللهِ، كأنّك أخبرت بهذه الصفة عنه أنّه كان فيها أمسِ، فقلتَ: مكة واللهِ، أيْ أراد مكة إذ ذاك))**[56] فالتركيب: مكة وربِّ الكعبة جملة محوّلة وكان اختزال الفعل فيها لإمكانية هذا التركيب من الإحالة إلى موقف واضح أدرك المتكلم أن المخاطب مدرك له بقوله:((حيث زَكنت أنه يريد مكة..)).

ويقول سيبويه بعد النص السابق:**((ولو رأيت ناساً ينظرون الهلالَ وأنت منهم بعيد فكبّروا لقلت: الهلالَ وربّ الكعبة؛ أي أبصروا الهلالَ. أو رأيت ضرباً فقلت على وجه التفاؤل: عبدَالله، أي يقع بعبداللهِ أو بعبدالله يكون، ومثل ذلك أن ترى رجلاً يريد أن يوقع فعلاً، أو رأيته في حال رجل قد أوقع فعلاً، أو أخبرت عنه بفعل فتقول: زيداً، تريد: اضرب زيداً أو أتضرب زيداً؟))**[57] فكأن سيبويه يقدّم لنا مشهداً مسرحياً يظهر فيه جماعة يترقبون الهلالَ وبعيداً عنهم يقف المتكلم وهو مطّلع على أمرهم، فإذا كبّروا عرف المتكلم أنهم قد أبصروا الهلال لأن التكبير في مثل هذا المقام يعني رؤية الهلال. ويتخذ المخاطب موقفاً قريباً من المتكلم ناظراً إلى الجماعة غير عالم بخبرهم فإذا قال المتكلم:الهلالَ؛ فهم منه المخاطب أنّ الجماعة قد أبصرت الهلال.وكذلك الحال في البقية فالمحتوى الدلالي الذي يقدّم سيبويه ههنا يتضمن حقائق خارجية هي:

الجماعة المترقبة لولادة الهلال.

المتكلم وموقعه البعيد عن الجماعة.

5- المجال القبلي(الأصل) karnal: تبرز هنا مسألة الأصل والفرع إذ لكل مظهر كلامي أصل سابق عليه . سواء على مستوى المفردات أم التركيبات. وتظهر في هذا المجال البنى الافتراضية (البنية الأصل والبنية العميقة) للجمل، والتحولات التي تطرأ على البنى السطحية والمنطوق من الكلام. ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه، الخاتمة:278-282.

(56) كتاب سيبويه:1/ 257.

(57) كتاب سيبويه:257/1.

معرفة المتكلم الضمنية بما اجتمعوا لأجله.

العادات الاجتماعية تفرض سيطرتها على السلوك اللغوي.(فكبروا...)

المخاطب وموقعه من المتكلم.

رؤية المخاطب أو معرفته بوجود الجماعة.

عدم معرفة المخاطب سبب اجتماعهم.

سماع المخاطب تكبير الجماعة... وهكذا.

وقد عبر د.نهاد الموسى عن هذا المحنى عند سيبويه بقوله: ((وهذه آيات دالة على أن سيبويه أدرك ما يكون من انعدام اللغة في نظامها الداخلي الخاص، بالحياة في مجالها الخارجي العام))[58].

وكان د.نهاد الموسى قد أطلق على هذا الجانب من التحليل(البعد الخارجي في التحليل النحوي عند سيبويه)[59]. ومن الممكن إضافة بعض الاحتمالات لهذا المشهد السياقي الذي يفترضه سيبويه في القول بدلالة الكلمة الواحدة(زيداً ونحوها)على جملة تامة حذف فعلها لدلالة الحال عليه وعلم المتكلم بأن المخاطب يشاركهُ في تبنّي مجموعة من التوافقات الخطابية مما يمكن عدّه في إطار(مبدأ التعاون) الذي قال به غرايس.

من الظواهر الواضحة في الجملة العربية أن يتم الاستغناء عن بعض مكوناتها لما يوفّره بناء الجملة المتحققة للمستمع من ملاحظة ما أستغني عنه. وقد جرى مثل ذلك في طائفة من التركيب أُختزل فيها الفعل(كما عبّر سيبويه)على نحو الاختيار لا الإلزام من نحو قوله:((**هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره،إذا علمت أنّ الرجل مستغنٍ عن لفظك بالفعل. وذلك قولك: زيداً، وعمراً، ورأسَه.وذلك أنّك رأيتَ رجلاً يضربُ أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله فقلت: زيداً، أي:أوقع عملك بزيد.أو رأيت رجلاً يقول: أضرِبُ شرَّ الناس فقلتَ: زيداً، أو رأيت رجلاً يحدِّثُ حديثاً فقطعه فقلتَ: حديثك، أو قدم رجل من سفر فقلت:حديثك، استغنيت عن الفعل بعلمه أنه مستخبر، فعلى هذا يجوز هذا وما أشبهه. وأمّا النهي فإنّه التحذير، كقولك:الأسدَ الأسدَ، والجدارَ الجدارَ، والصبيَّ الصبيَّ؛ وإنّما نهيته أن يقرب الجدار المخوف المائل، أو يقرب الأسد أو يوطئ الصبيّ...**))[60] . وهو ما نفهمه من قول سيبويه فيما سبق بقوله:((إذا علمت أن الرجل مستغنٍ عن لفظك بالفعل)). وكذلك قوله:((...بعلمه أنه مستخبر...)). فهكذا حال من تخاطبه إذ يجب لتحقق القصد من الكلام أن يفهم المقابل ما تحاول أن توصله إليه وإلاّ استحال الأمر.

(58) نظرية النحو العربي: 90.

(59) ينظر: نظرية النحو العربي: 88.

(60) كتاب سيبويه:1/ 253.

ثمّ إنّ الذي تريد إيصاله ربّما يتجاوز كثيراً ما تلفظ به؛ وذلك ما أبان سيبويه عنه في الفعل المحذوف. وكذلك فيما تقدّم من دلالة الحال على وجود الاسم الموصوف بها. ومن الواضح أنّ سيبويه يرى أن هذه الكلم جمل تامة لأنّ بناءها الظاهر يتضمن محتوىً دلاليّاً مثلما تتضمنه الجمل التامّة البناء. ويظهر المحتوى الدلالي متضمّناً موقفاً هو عبارة عن طائفة من الأحداث يقوم بها الطرف الأوّل بمرأى ومسمع من الطرف الثاني الذي سيتخذ وظيفة الآمر أو المستخبر أو المحذِّر للطرف الأوّل(الذي سيكون المخاطب). فللكشف عن المحتوى الدلاليّ يجب رسم صورة للبيئة التي أنتجت الجملة بكل أطرافها.

فالنص يبيّن كيف يتمّ الانسياق مع مبدأ التعاون المتقدّم ذكرهُ إذ يقترن بآثار خارجيّة متوجّة نحو الحواس والإدراك فالحال أو الموقف والمعرفة السابقة سمحا بهذا المسلك الاختياري في اختزال العنصر المولِّد والأساسي في الجمل مع بقاء هيمنتهما في إنشاء الجمل: وربط مكوناتها بعضاً ببعض.

كما تجب هنا ملاحظة الأثر الوظيفي الذي تلبس المتكلم والمخاطب فيصبحان سائلا ومجيبا كما في طائفة من الجمل المحولة التي اشتملت على نقص تركيبيّ عن نمطها الأساس؛ فمما لا يجوز فيه الازدواج الوظيفي أن توضع الصفة في موضع الاسم إلا في مواضع معينة وللبرهنة على ذلك يعمد سيبويه إلى ملاحظة المحتوى الدلالي للجملة فهو يقول:((**وما يبيّن لك أن الصفة لا يقوى فيها إلاّ هذا أنّ سائلاً لو سألك فقال: هل سير عليه؟ لقلتَ: نَعْمَ: سير عليه شديداً، وسير عليه حسناً. فالنصب في هذا على أنّه حال. وهو وجه الكلام؛ لأنّه وصف للسير، ولا يكون فيه الرفع لأنّه لا يقع موقع ما كان اسماً، ولم يكن ظرفاً لأنّه ليس بحين يقع فيه الأمر**))[61].

إنَّ الصورة الظاهرة للجملة هي التي تقرر محتواها الدّلالي ومن ثمَّ السياق الذي يمكن أن ترد فيه. فوجوب النصب للوصف وعدم جواز رفعه مكّن سيبويه أن يقدّم محتواها الدلالي على وفق سؤال وجواب. ومن ثمّ فان سيبويه يضع في اعتباره أن المنطوق هو الذي يكشف عن المحذوف ويكشف عن البنية الأولى التي صيغت عليها الجملة، ولذا فان المنطوق يتبادل الأثر مع سياقه في طبيعة تكوينه، والتحولات التي تعريه. ومن هنا يمكن القول أن عملية التحويل عن الأصل هي عملية تركيبية، وأنها تطال التركيب حسب وليس هناك بنى دلالية محولة، بل هي بنية واحدة تمتلك أكثر من تركيب لتمثّلها.

نتائج البحث:

1- المكان هو البيئة الذي تحيط بالكلام إنتاجا ونظرا ولقد نظر الاتجاه التداولي المعاصر إلى الكلام بوصفه انجازا تتوارد فيه أثار متعددة من خارج اللغة فتكتنزها جمله ودلالات مفرداته. وزدنا على

(61) كتاب سيبويه:1/ 228.

هذا القول أن جزء من تلك التداولية تكمن في عالم اللغة نفسه فهو لم يكن بمنأى عن التأثر بالبيئة المحيطة وحاله في ذلك كحال المتكلم، فسيعمد بوعي أو بغيره إلى اكتناز عناصر المكان والزمان والميول الاجتماعية المعاشة في فهم مكونات درسه اللغوي، ومحاوره ومنهج معالجة لغته. فلا يقصر النظر التداولي على مكونات اللغة ذاتها؛ بل يضاف عليها الطرائق المتبعة لفهمها.

2- من هنا رجح للباحث أن سيبويه كان قد وضع لمؤلفه اسما هو كتاب سيبويه أو الكتاب، على عادة معروفة عند العرب في إنتاج دواوينها وذكر أيامها، ولعل سيبويه قدم لنا في كتابه ما يفيد في هذا المجال، وهو نص منه على هذا النزوع، مع إدراجه لاسمه (عمرو) في هذا النصّ.

3- كما يرجح لدى الباحث أن سيبويه قدم بعض ما يؤصل عربيته الحضارية والاجتماعية بإنكاره أن عمرويه قد لحقته لاحقة أعجمية. وأنه كان ربيب عمق تاريخيّ لعائلة يبادر من اسمه ونسبه، كما أن انتماء سيبويه لمجتمعه مثل أعلى مراحله بنظرته الى اللغة العربية بوصفها لغة خطاب.

4- كان الملمح الاجتماعي وأثره في الدرس النحوي في الكتاب يلح على أخذ التوجيه النحوي في محاور كثيرة نحو اعتبارات اجتماعية أو مظاهر تلك الحياة ليتم له صياغة أفكاره على تلك المحاور

5- وعلى هذا فقد سار سيبويه على محورين رئيسين لتحليل كلام العرب في ظل من أستاذه الفراهيدي والمحورين هما:

أ- محور افتراضي قبلي يهتم بالتركيب والعلاقات القائمة بين مكونات التركيب الواحد، بغض النظر عن المعنى.

ب-المحور الدلاليّ-التداوليّ، فالكلام تواصل وأخبار وتبادل للمعلومات وهو المحور التي اهتم البحث برصد بعض مظاهرها التي تؤكد الوعي السيبويهي في هذا المجال، وهو ناحية مهمة افتقدها الدرس النحوي العربي بعد الخليل وسيبويه كما لم تكن من همه قبلهما. ولقد قدّم فيه سيبويه افتراضا سياقيا سمّاه الخُلْف للدلالة على كل الملابسات الخارجية التي تحيط عملية التواصل(المتكلم والمخاطب أو المتلقي والظرف المكاني والزماني الذي أُنجز فيه الكلام، مع اعتبارات اجتماعية متعددة تخصّ كل تلك المتعلقات). ولقد كان هذا التحليل مهيمنا عند سيبويه ولا نبالغ ذا قلنا إنّ المحور العقلي الآنف الذكر هو نتيجة لهذا المحور، ولقد استوحى سيبويه من البنية الدلالية للجملة، وأثرها التداولي بنيتها التركيبية القبلية، وعلى ذلك فالمستوى القبلي للجملة هو مستوى تركيبي مجرد، يجري تحويره في مراحل التحويل بما يخدم الدلالة المرادة والعملية التواصلية .

ثبت المظان:

1- أسلوب النداء دراسة لغوية صوتية، د.طارق الجنابي،(ضمن كتاب أبحاث عربية في الكتاب التكريمي المستشرق الألماني فولفديتريش فيشر، إعداد وإصدار: د.هاشم اسماعيل الأيوبي، ط1994،1.)

2- الاقتضاء في التداول اللساني، د.عمر فاخوري، عالم الفكر،مج20،ع1989،3.

3- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي(337هـ)، تحـ:د.مازن المبارك، دار النفائس، مؤسسة مطابع معتوق ،بيروت، ط1393،2هـ-1973م.

4- البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، عالم الفكر، ع2004،33م.

5- التَّعْليلُ فِي الدّرسِ النَّحْوِيّ(نظرةٌ في أُصُولِ اللُّغةِ)،مجلة جامعة كربلاء،المجلد7و8، 2009 .

6- تكوين الجمل وامتدادها عند سيبويه في ضوء منهجه التفسيري للنحو، مجلة ثقافتنا، دائرة العلاقات الثقافية، وزارة الثقافة العراقية،العدد5 ،2007-2008.

7- كتاب الجمهرة اللغة، لأبي بكر محمد ب الحسن بن دريد(ت321هـ)،تحـ: د.منير بعلبكي، دار العلم للملايين ، بيروت،ط1987،1م.

8- دور السياق في منهج التحليل النحوي عند سيبويه،موسى ابراهيم موسى حسن الشلتاوي، رسالة ماجستير مقدّمة الى كلية الدراسات العليا،الجامعة الأردنية،1411هـ -1991م.

9- سيبويه إمام النحاة، علي النجدي ناصف، مكتبة النهضة، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر،1372هـ-1953م.

10-سيبويه:حياته وكتابه، د.خديجة الحديثي، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة ، بغداد، 1394هـ -1974م.

11- فتوح البلدان، البلاذري مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة.

12-الجمل في النحو،أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170هـ)، المحقق: د. فخر الدين قباوة، ط1416،5هـ 1995م.

13-العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(100-175هـ)،تحـ:د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دائرة الشؤون الثقافية العامة، دار الحرية للطباعة، ط1404،2هـ-1984.

14-كتاب سيبويه ويليه تحصيل عين الذهب في علم مجازات العرب لمؤلفه يوسف بن سليمان الشنتمريّ، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت ،1410هـ- 1990م.

15-كتاب سيبويه، أبو بشير عمرو بن عثمان بن سيبويه، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط1316،1هـ.

16- كتاب سيبويه، محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1995.

17-الكتاب-كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت185هـ)، تحـ: عبدالسلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت(د.ت)،وهي النسخة المعتمدة.

18- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري(711هـ)،مصورة عن طبعة بولاق ،الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، مطبعة كوستاتوماس وشركاؤه.

19- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ت.د.عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد،ط1987،1.

20- المثلث، ابن السيد البطليوسي(444هـ-521ه)،تحـ: د.صلاح مهدي الفرطوسي، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة،بغداد،1401هـ-1981م.

21- مراجعات لسانية مقالة لنحويين الرواة،د.حمزة بن قبلان المزيني، كتاب الرياض،ج2 (مراجعات لسانية)،1420هـ.

22- المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، د.عبدالحليم بن عيسى، مجلة دراسات أدبية، الجزائر، ع2008،1.

23- المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي عند سيبويه، تحليل وتوجيه، د. غالب المطلبي ود. حسن عبدالغني الأسدي، مجلة المورد العراقية،ع3 ،1999 م .

24- مفهوم الجملة عند سيبويه، د. حسن عبد الغني الأسدي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط1428،1هـ-2007م.

25- من أعلام البصرة سيبويه هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، د.صاحب جعفر أبو جناح، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد ،1394هـ-1974م.

26- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحويّ، د.محمد كاظم البكاء، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،ط1989،1م.

27- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د.نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت،ط1400،1هـ-1980م.

28- الاقتضاء في التداول اللساني، د.عمر فاخوري، عالم الفكر ،مج20،ع1989،3.